جامعة الموصل

كلية الآداب

القسم: علم الاجتماع

عنوان المحاضرة: الثقافة والانسان

المادة الدراسية: عولمة وثقافة

المرحلة الدراسية: الدكتوراه

مدرس المادة: أ.د.حارث علي حسن العبيدي

العام الدراسي: 2026-2025

المحاضرة الثانية

الثقافة والانسان

مقدمة

لا يكاد يخفى على دارسٍ للعلوم الاجتماعية ذلك التداخل العضوي، والارتباط الجدلي، بين مفهومي "الثقافة" و"الإنسان". فالإنسان هو حامل الثقافة وناقلها، وهو في الوقت ذاته نتاجها وثمرتها، تشكله فكراً وسلوكاً، وهو بدوره يعيد تشكيلها عبر الزمن، إما حفاظاً على جوهرها أو تطويراً لمضامينها أو حتى تحويلاً لمسارها. تشكل هذه العلاقة الديناميكية نسيجاً معقداً للحياة الاجتماعية، تنطوي في أنماط العيش، والقيم، والتعبيرات الرمزية، والفنون، والمعتقدات .وإذا كان هذا هو الحال في الأزمنة المغلقة أو المحدودة جغرافياً وثقافياً، فإن دخول العالم عصر "العولمة" قد أضاف أبعاداً جديدة بالغة التعقيد على هذه العلاقة. ففضاء العولمة، بوصفه فضاءً للتدفقات المتسارعة للرأسمال، والمعلومات، والصور، والأفراد، والقيم، قد أحدث زلزالاً في البنى الثقافية التقليدية للمجتمعات، فلم تعد الثقافة كياناً متماسكاً مغلقاً، بل أصبحت ساحة للصراع والتفاوض والتهجين والاختراق.

أولاً: مفهوم الثقافة

لا يوجد تعريف واحد جامع مانع للثقافة، فهي من المفاهيم التي تعددت تعريفاتها بتعدد المناهج والرؤى. غير أننا يمكن أن نستعرض بعض التعريفات المؤسسة، فمن المنظور الأنثروبولوجي الكلاسيكي، كما رأى إدوارد تايلور، فإن الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والعرف، وأية قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع. هذا التعريف يشدد على الطابع الكلي والمركب والمكتسب للثقافة، مما يجعلها إرثاً جمعياً يتجاوز الفرد الواحد .أما من المنظور الرمزي، الذي تزعمه مفكر مثل كليفورد غيرتز، فتصبح الثقافة هي ذلك النسيج المعقد من المعاني التي ينسجها الإنسان ويحيا في ظلها، فالثقافة هنا ليست مجرد قائمة من العادات والتقاليد، بل هي نظام من الرموز والدلالات التي تمنح التجربة الإنسانية معنى، وتجعل السلوك البشري قابلاً للتفسير والفهم. فطقوس الزواج أو الحداد، على سبيل المثال، ليست أفعالاً مادية فحسب، بل هي عروض رمزية تحمل دلالات عميقة عن مفهوم الأسرة، والعلاقات، والحياة، والموت .في حين يؤكد المنظور البنيوي الوظيفي، ممثلاً بـ بارسونز، إلى الثقافة كنظام من القيم والمعايير التي تنظم حياة المجتمع وتضمن استقراره وتماسكه، فهي تشكل الإطار المعياري الذي يوجه سلوك الأفراد ويضفي شرعية على النسق الاجتماعي.

من خلال هذه الرؤى المتعددة، يمكننا أن نستشف السمات الجوهرية للثقافة، فهي ظاهرة مكتسبة بالتعلم وليست فطرية أو غريزية، تنتقل عبر التواصل والتفاعل الاجتماعي ضمن الجماعة، وهي تراكمية تنتقل من جيل لآخر وتخضع لعملية إضافة وحذف مستمرتين، كما أنها ظاهرة رمزية تعتمد على اللغة أساساً، وهي تكيفية تساعد المجتمع على التكيف مع بيئته، وهي في النهاية ظاهرة نسبية تختلف من مجتمع لآخر، مما يحذرنا من إصدار أحكام قيمية مطلقة عليها.

ثانياً: الإنسان الكائن الثقافي

إذا كانت الثقافة هي ذلك النظام المعقد، فإن الإنسان هو ذلك الكائن الوحيد القادر على إنتاج هذا النظام واستيعابه والتأثر به، وهذا ما يميزه عن الكائنات الأخرى تميزاً جوهرياً، فمن المنظور الفلسفي، يوصف الإنسان بأنه "حيوان ناطق"، والنطق هنا لا يعني مجرد إصدار الأصوات، بل يعني القدرة على استخدام اللغة الرمزية التي هي وعاء الثقافة وأداة تخزينها ونقلها، فباللغة يستطيع الإنسان تجاوز الحاضر المادي، والتحدث عن الماضي واستشراف المستقبل، ونقل تراكمات معرفية هائلة .وتذهب الأنثروبولوجيا الفلسفية إلى أبعد من ذلك، فترى أن الإنسان كائن "غير مكتمل" بيولوجياً وغرائزياً مقارنة بالحيوانات، فصغير الحيوان يكون قادراً على الاعتماد على نفسه بعد فترة وجيزة من ولادته، بينما يظل الإنسان لسنوات عديدة محتاجاً إلى رعاية الآخرين، هذا النقص البيولوجي أو عدم التخصص الغريزي هي التي تدفعه لابتكار الثقافة كبديل اصطناعي يكمل به نفسه، فالثقافة هي طبيعة الإنسان الثانية.

يمكننا القول إن الإنسان هو كائن طبيعي، لكنه يعيش في عالم ثقافي يعلو على عالم الطبيعة، فهو يولد كإمكانية بيولوجية هائلة، ولكنها تظل إمكانية مجردة لا تتحقق إلا من خلال عملية "التنشئة الاجتماعية" التي تغرس فيه ثقافة مجتمعه. فالإنسان لا يولد عراقياً أو مصرياً أو يابانياً، بل يولد كائناً بشرياً قابلاً لأن يصبح واحداً من هؤلاء عبر استيعابه للغة، والقيم، والعادات، وأنماط التفكير السائدة في مجتمعه، وهكذا فإن الثقافة هي التي تصوغ الهوية الإنسانية وتحدد معنى أن تكون إنساناً في زمان ومكان محددين.

العلاقة الجدلية بين الثقافة والإنسان

إن العلاقة بين الثقافة والإنسان ليست علاقة خطية بسيطة من السبب إلى النتيجة، بل هي علاقة جدلية ديناميكية، يشكل فيها الطرفان بعضهما البعض في حوار مستمر عبر التاريخ، فالثقافة تقدم للإنسان برنامجاً للحياة، إن جاز التعبير، فهي تزوده بالإجابات الجاهزة عن الأسئلة الوجودية الكبرى من أين جاء؟ ولماذا يعيش؟ وإلى أين يمضي؟ وهي تقدم له المعايير التي تحدد الصحيح والخطأ، الجميل والقبيح، المقبول والمرفوض، من خلال هذا الإطار يكتسب الفرد هويته ويشعر بالانتماء إلى جماعته، فالثقافة هي العدسة التي يرى من خلالها العالم ويعطيه معنى.

في المجتمع العراقي التقليدي، على سبيل المثال، كانت الثقافة تقدم أنماطاً واضحة ومستقرة للعلاقات الاجتماعية، تحدد بدقة واجبات الفرد وحقوقه وفقاً لانتمائه العائلي، والقبلي، والطائفي، والمناطقي، كما كانت تقدم قيماً راسخة مثل الكرم، والشجاعة، والاحترام، والتي كانت تشكل معاييراً ثابتة لتقييم الأفراد .ولكن الإنسان في هذه المعادلة ليس متلقياً سلبياً، بل هو فاعل ومبدع، فالأفراد من خلال ممارساتهم اليومية وتفاعلاتهم وإبداعاتهم وأحياناً تمردهم، يعيدون إنتاج الثقافة ويجددونها ويعدلونها، إنهم يطبعون الثقافة بطابعهم الشخصي فالمثقف، والفنان، والمبدع، والمصلح الاجتماعي، وحتى الشخص العادي في مواقف الحياة اليومية، يساهمون في إدخال تغييرات، قد تكون طفيفة أحياناً وجذرية أحياناً أخرى، على النسق الثقافي.

هذه العلاقة الجدلية تجعل من الثقافة كائناً حياً يتنفس ويتطور، وليست متحفاً لأفكار الماضي، فالثقافة التي تتجمد وترفض التغيير تصبح ثقافة متحجرة، غير قادرة على مسايرة تطور الإنسان واحتياجاته، وفي المقابل فإن الإنسان الذي يقطع صلته بالثقافة تماماً يفقد جذوره وهوياته ويصبح كائناً مشوهاً بلا بوصلة تهديه، فالتوازن بين الاستمرارية والتغيير هو سر ديمومة وحيوية أي ثقافة من الثقافات.

التحولات في فضاء العولمة

مع انبثاق عصر العولمة، دخلت علاقة الثقافة بالإنسان في منعطف تاريخي حاسم، لقد حولت العولمة العالم إلى "قرية صغيرة" كما يُشاع، ولكنها في الحقيقة هي فضاء غير متساوٍ، تتدفق فيه الرموز، والقيم، وأنماط الاستهلاك، والمعلومات، بسرعة هائلة وعلى نطاق لم يسبق له مثيل، هذا الفضاء الجديد قد أحدث تحولات عميقة في طبيعة العلاقة بين الثقافة والإنسان، يمكن إجمالها في عدة ظواهر رئيسية:

1_ **أزمة الهوية:** في الماضي، كانت الهوية الثقافية للإنسان مستقرة إلى حد كبير، ومتجانسة، ومحددة وواضحة، أما في فضاء العولمة، فأصبح الفرد يعيش في فضاءات ثقافية متعددة ومتداخلة، فهو يتعرض يومياً عبر وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي والإنترنت لسيل من القيم وأنماط الحياة المختلفة، من الثقافة الغربية إلى الثقافات الشرقية، هذا التعرض المتزامن والمستمر يخلق حالة من التعدد والتناقض داخل الذات الواحدة.

لم يعد الشاب العراقي، مثلاً، يحمل فقط القيم والعادات الموروثة من أسرته ومجتمعه المحلي، بل أصبح أيضاً متأثراً بقيم الفردية، والاستهلاك، والحرية الشخصية، وأنماط الحياة التي تروجها الثقافات الوافدة عبر الشاشات الصغيرة. هذا الخليط قد يخلق صراعاً داخلياً بين الانتماء إلى الموروث التقليدي والانجذاب نحو النمط العالمي، مما يؤدي إلى حالة من "انشقاق الهوية" أو "الهوية الهجينة."

2_ صعود الثقافة الاستهلاكية: لقد حولت العولمة الثقافة إلى سلعة قابلة للتسويق والاستهلاك على نطاق عالمي، لم تعد الثقافة تعني فقط القيم والتراث والفنون الرفيعة، بل أصبحت تعني أيضاً ماركات الملابس العالمية، ومقاطع الفيديو الموسيقية (الكليبات)، وألعاب الفيديو، والوجبات السريعة، هذه الثقافة الاستهلاكية تروج لنمط حياة موحد، يحلم به الناس في مختلف أنحاء العالم، مما يؤدي إلى ظاهرة "التنميط الثقافي" أو "التغريب". ففي مجتمعنا العراقي، نرى تجليات هذا واضحة في انتشار المراكز التجارية (المولات) الضخمة في بغداد والمحافظات، والتي لم تعد مجرد أماكن للتسوق، بل تحولت إلى فضاءات اجتماعية وثقافية جديدة، يلتقي فيها الشباب، وتتغير فيها أنماط الإنفاق والذوق، كما نرى انتشار المطاعم العالمية للوجبات السريعة ليس كخيار غذائي فقط، بل كرمز للانتماء إلى "الحداثة" و"العالمية". هذه الثقافة تخلق إنساناً مستهلكاً، تقاس هويته بما يمتلكه ويستهلكه، أكثر مما تقاس بما يؤمن به وينتجه.

3_ تفكك السلطة الثقافية التقليدية: في المجتمعات ما قبل العولمة كانت مصادر تشكيل الثقافة والهوية محصورة في مؤسسات تقليدية محددة مثل الأسرة، والمدرسة، ورجال الدين، والإعلام الرسمي الموجه، هذه المؤسسات كانت تمثل "سلطة ثقافية" تحدد ما هو صائب وما هو خاطئ، وتعمل على حفظ النسق الثقافي ونقله للأجيال، ولكن في فضاء العولمة انهارت احتكارية هذه المؤسسات، فالشاب العراقي اليوم لا يتلقى قيمه ومعارفه فقط من والديه ومدرسيه في المدرسة، بل ينفتح على عوالم لا حصر لها عبر الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، فهو قد يتابع مُعلِّقاً على "اليوتيوب" أو "انستغرام" من ثقافة مختلفة، فيتأثر بآرائه وأسلوب حياته أكثر من تأثره بخطاب والده أو معلمه، هذا الانزياح في مصادر المعرفة والسلطة الثقافية يضعف من سطوة المؤسسات التقليدية، ويخلق فجوة بين الأجيال، ويجعل عملية التنشئة الاجتماعية عملية أكثر تعقيداً وتشتتاً، حيث تتنافس مصادر محلية وعالمية، تقليدية وحديثة، لتشكيل وعي وثقافة الإنسان المعاصر.

4_ صدام الهويات وردود الفعل: في مواجهة هذا الطوفان الثقافي العالمي، لا يستسلم الجميع بشكل سلبي، بل نرى ظهور ردود فعل قوية ومتباينة، فمن ناحية هناك نزعة نحو "التفاعل الخلاق" أو "التهجين"، حيث يتم دمج العناصر الوافدة مع العناصر المحلية لإنتاج صيغ ثقافية جديدة ومبتكرة. نرى أمثلة على هذا التهجين في مجال الموسيقى، حيث تندمج الألحان والإيقاعات العراقية الأصيلة مع تقنيات وألحان الغربية مستحدثة فناً جديداً يجذب الشباب، وفي الأدب نرى كتاباً عراقيين يستخدمون تقنيات سردية ما بعد حداثية لرواية حكايات ترتبط بالتراث والذاكرة العراقية، هذا النموذج يخلق إنساناً منفتحاً على العالم، لكنه متمسك بجذوره، قادر على انتقاء ما يناسبه من الثقافات الأخرى دون أن يفرد هويته.

وفي المقابل نرى رد فعل معاكس تماماً يتمثل في "الانكفاء على الذات" و"التطرف الهوياتي"، يشعر بعض الأفراد بالتهديد الشديد من قبل الثقافات الوافدة، التي يرونها غازية ومدمرة لهويتهم وقيمهم الأصيلة، هذا الشعور بالخطر الوجودي يدفعهم إلى التشبث بشكل متصلب ومتطرف بهويتهم التقليدية، والانغلاق على الذات، ورفض الآخر المختلف بكل أشكاله.

5_ تحولات في البنى الاجتماعية الأساسية: لم تترك العولمة تأثيرها على مستوى الفرد والهوية فقط، بل امتد تأثيرها ليهز أركان البنى الاجتماعية التقليدية. فالأسرة العراقية، التي كانت تتميز بكونها أسرة ممتدة (العائلة الكبيرة) حيث يعيش الأجداد، والأبناء، والأحفاد في دار واحدة أو حي واحد، تشهد تحولاً نحو نموذج الأسرة النووية (الأب، الأم، الأبناء) تحت ضغوط الحياة العصرية، والهجرة الداخلية، والقيم الفردية الوافدة، هذا التحول أدى إلى إضعاف الروابط العائلية التقليدية، وتقليل دور الأقارب في عملية التنشئة، وزيادة العبء على الأسرة الصغيرة .كما شهدت علاقة الجنسين تحولات ملحوظة، وإن كانت متفاوتة بين الريف والمدينة وبين الطبقات الاجتماعية، فبرغم استمرار الهيمنة الذكورية في الكثير من المجالات، إلا أننا نرى تزايداً في مشاركة المرأة العراقية في الحياة العامة، والتعليم، وسوق العمل، مدفوعاً بالحاجة الاقتصادية من ناحية، وبالتأثر بالخطابات العالمية حول حقوق المرأة من ناحية أخرى، هذا بدوره يخلق حالة من التفاوض وإعادة تعريف للأدوار التقليدية للرجل والمرأة داخل البيت وخارجه.

مستقبل العلاقة في ظل تحدي العولمة

إن العلاقة بين الثقافة والإنسان، كما حاولنا أن نبين، هي علاقة حيوية ومصيرية. وقد دخلت هذه العلاقة في مرحلة من التعقيد غير المسبوق تحت تأثير قوى العولمة الجارفة، لقد تحول الإنسان من كائن يعيش في فضاء ثقافي واحد ومتماسك نسبياً، إلى كائن يعيش في فضاءات ثقافية متعددة ومتداخلة، تتصارع داخله وتشكله بطرق جديدة، ولم تعد الثقافة كياناً محلياً منغلقاً، بل أصبحت ساحة مفتوحة للتدفقات العالمية، والتفاوض، والصراع، والتهجين .

إن التحدي الأكبر الذي يواجه الإنسان المعاصر، والإنسان العراقي بشكل خاص في ظل ظروفه الاستثنائية، هو كيف يمكنه أن يبني هوية مرنة ومتطورة، قادرة على الانفتاح على إيجابيات العولمة والاستفادة من معطياتها، دون أن تفقد جذورها وأصالتها، كيف يمكن أن يكون مواطناً عالمياً دون أن يتخلى عن انتمائه المحلي.

شكرًا